وعد بلفور : ازدواجية وانحياز

يوسف حدّاد

لم تشكل فلسطين، قبل انهيار الامبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الاولى، كياناً جغرافياً ـ سياسياً قائماً بذاته. فلقد عرفت، منذ زمن بعيد، بسوريا الجنوبية، «تعبيراً عن موقعها الجغرافي ووضعها الاداري...[فـ] من الناحية الادارية، كانت فلسطين تشتمل على سنجق [متصرفية] القدس المستقل وعلى سنجقي عكا ونابلس التابعين لولاية الشام، الى ان الحقا بولاية بيروت، بعد اعادة تنظيم ولاية الشام عام ١٨٨٣»[١].

ولقد اكسبها موقعها على ساحل المتوسط الشرقي، في اقصى الطرف الغربي من الهلال الخصيب، اهمية خاصة، منذ اقدم العصور. لكن اهمية موقعها الجغرافي ازدادت «في أواخر القرن الثامن عشر، ابان غزو نابليون لمصر والشام، ثم في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، عندما هددت جيوش محمد علي الدولة العثمانية. وبفتح قناة السويس في العام ١٨٦٩، واحتلال بريطانيا لمصر في العام ١٨٨٢، ظهرت اهمية فلسطين الاستراتيجية، مما جعلها هدفاً لاطماع بريطانيا الامبريالية، بحجة حماية قناة السويس، من جهة، وحماية طرق مواصلاتها الى الهند، من جهة اخرى. وكان اصدار وعد بلفور في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧، آخر حلقة من حلقات التطويق التي وضعتها الامبريالية البريطانية لاحتلال فلسطين[٢].

ومن هذا المنطلق، اخذت بريطانيا تخطط للسيطرة على فلسطين، وفصلها عن بقية المناطق السورية. «ولذلك، فان الرأي الذي بدأ يكسب دعماً في دوائر بريطانية معينة، هو: «انه في حالة تجزؤ الامبراطورية العثمانية يجب ان يبذل جهد لفصل سورية الجنوبية، الممتدة، شمالاً، الى حدود حيفا وعكا، لتشكل كياناً منفصلاً يقع تحت النفوذ البريطاني. وعمل اللورد كتشنر (وكان المعتمد البريطاني في مصر من ايلول [سبتمبر] ١٩١١ وحتى نشوب الحرب) على الدعوة لهذه الفكرة في الدوائر الرسمية قبل الحرب»[٣].

وسرعان ما ادرك الفلسطينيون والشاميون عامة نوايا بريطانيا الخبيثة، ومطامعها الامبريالية، بعد نهاية الحرب العالمية الاولى، وافتضاح امر معاهدة سايكس ـ بيكو ووعد بلفور، فراحوا يطالبون، باستمرار والحاح، بعدم فصل فلسطين عن بقية البلاد السورية لادراكهم حقيقة الخطر المحدق، الكامن وراء هذا الفصل. وللدلالة على هذا الادراك، داخل فلسطين وخارجها، نورد بعض القرائن والامثلة، منها ما جاء في البند السابع من عريضة فلسطينية قدمت الى مؤتمر الصلح في باريس العام ١٩١٩ بـ «ان فلسطين جزء طبيعي من سوريا، لم تنفصل عنها في دور من ادوارها؛ ففصلها عنها لاجل خلق وطن قومي لاناس غرباء عنها شيء لا يوافق الحق والعدل، من جهة، وسبب لاضرار عظيمة مادية وادبية تلحق بالسكان، من جهة اخرى»[٤].